قصة قصيرة

العالم الرابع

فاتح عبد السلام

ولد أسعد أعور العين اليسرى، واعتاد أن يسمع: يا أعور.. أبو العورة.. هوع.. هوع أعور، كلّما نشب شجار بينه وبين أصدقائه في المدرسة أو الشارع. ولم يكن مثل الآخرين معقداً وعصبياً ومتطيراً من هذه التسمية. وكان الناس يقولون، إن الله عوّض له عن عينه العوراء هدوء الأعصاب معجزة هذا الزمان.

أسعد، ليس غبياً أو معتوهاً أو ثخين الإحساس، وهذا ما جعل أصدقاءه يتوقعون منه حدثاً مترقباً كل ساعة وهو صامت يلعب ويضحك، ويسرق، ويعابث البنات، ويلعن والدي الآخرين.. إنه مثلهم في كل شيء إلّا هدوء الأعصاب. هذا الأعور يستفز الجميع ولا يخبط دمهُ، هذا الصغير يحارب الجميع ليس معه أحد. وأسعد يضحك، ويطقطق بعلك وردي راحت حلاوتهُ، ويحرك رأسه كعصفور، محاولاً أن يجتذب الانتباه دون أن تعرف أيّ طريقة يتبع لذلك.

ولا يشعر أي من الصبية الصغار أنّ أسعد الأقصر طولاً بينهم.. ولم يخطر في بالهم يوماً أن يعيروه بقبحهِ أو أن يستقبحوا منه لسانهُ البذيء. كانوا يسمونه الأعور حسب.

قبل أن يصل أسعد السابعة من عمرهِ، قال له أبوه: أسعد، سوف أدخلك في حلقة تعلّم القرآن عند الملّا سعيد في جامع المحلة. سأل الولد أباه: ماذا يوجد عند الملّا سعيد؟

ردَّ الأب معتداً بما يقول: سوف يعلّمك كيف تخاف الله يا ولد.

ومرّت الأيام يتعلم فيها أسعد كيف يخاف ربّهُ عند الملّا. حتى وجد أسعد ذات يومٍ أباهُ يكاد يصير جسدين، ورأسين وأربع عيون، وفمين، وأربع آذان.. دافعاً باب غرفة الملّا الداخلية حيث وجد الملّا وأسعد في وضع مريب وسط مكان نصف معتم. انتشل الولد من شعرهِ، وظل طوال الطريق إلى البيت يتمتم:

ملّا ماجن لا يخاف الله، مجرم فاسد الدين، كافر لا يعرف ربّهُ.. لا حول ولا قوة إلا بالله..

وصار أسعد في الخامسة عشرة، والناس يقولون: أسعد لا يخاف الله، وهو لا يزعل أو يخاف أو يتذمر، ولا يشعر أنّ ثمة قولاً معيباً يقال. كان يسمع سعفانة ابنة الجيران تسر إلى صديقتها ترفة: اسكتي، اسكتي، تقول أمّي إن الله يفقس في الليل عيون مَنْ يلعنهُ في النهار. يضحك أسعد بصوت عالٍ، حتى تسمعه البنتان فتفزعا، وتركض إحداهما إلى البيت تتبعها الثانية ونعلاها في يديها.

ويوماً بعد آخر، بدأ يشعر أن أولاد الجيران لم يعودوا يلعبون معه أو يحادثونه، وأن نسوة المحلة صرن يستنكرنه إذا سكت أو ضحك أو عطس أو بال، كل ما يفعله حرام وعيب، هذا الأعور لا يخاف الله.

كان المطر يتساقط ثقيلاً...

كل حبة مطر تنقر الأرض تكاد تبعجها. وأسعد فوق عتبة بيتهم ساكت. الزقاق خالٍ، والناس متوارون خلف الأبواب والشبابيك يتدفأون.. وبدأ أسعد يستعيد أصوات الناس في أذنيه حتى امتلأتا بضجيج مخيف: يا أسعد يا أعور.. أعور.. أسعد الأعور.. أعور.. أعور.. بكى أسعد، واختلطت دموعه بقطرات المطر.. وتعالى صوت ترددهُ الجدران المستفيقة على صوت المطر الناقر.. .. .. أسعد.. لماذا أنت أعور؟ أسعد، لماذا ليس هناك أحد غيرك أعور في المحلة..؟!

انقطع المطر، وصوت البكاء لمّا يزل ينشج في المكان الخالي مثل عزف منفرد لقيثارة ألم..

ـ أسعد، أنت لست سعيداً ونحن نعرف ذلك جيداً.

التفت أسعد فوجد رجلاً من المحلة خلفهُ.. ظل الرجل يتكلم

وأسعد يبكي دون تحسب لكبرياء أو حياء، يبكي كمن قُتل أبوه الساعة أمامه.

ـ أنت أعور يا أسعد لأنك لا تخاف الله.

وأسعد يبكي.

والرجل يتكلم بعقلانية، بطيئاً يركّب كلماته.

ولا يقدر أسعد أن يكف عن البكاء، يحاول ذلك جاهداً لكنه لا يقدر مطلقاً.. ويحس أن رغبة الكلام تقتلهُ إذا لم يطلقها تقول للآخرين، هو ليس أعور لأنهُ لا يخاف الله.. وأنه أيضاً لا يعرف لماذا هؤلاء لا يحبون من لا يخاف الله؟

ظل الرجل يتكلم.

وأسعد يبكي.

* * *

طوال الليل، استنفر قائد حرس الملك جنده الأيقاظ يبحثون في الطرقات والحدائق العامة والأزقة عمّن يحدث شخيراً عالياً يقض مضجع الملك، وبعد بحث طويل اكتشف الحرّاس أن ذلك الصوت ليس شخيراً عالياً كما اعتقدوا، بل بكاء ونشيج حزين وحداء موصول لأسعد الجالس على عتبة الدار، تحت شمعة الطريق الخافتة.

اقتادوا أسعد يبكي إلى بلاط الملك قبيل الفجر. أرادوا إسكات بكائه الحزين وكمموا فمه إلاّ أنّ صوته لا يكمم فقد بليت الخرق التي وضعوها في فمهِ. وفكروا أن يضعوا أيديهم بدلاً من الخرق البالية لكن أحداً نصحهم فعدلوا عن الفكرة. وقال له رئيس الدورية: سأضع حذائي في جوفك إذا لم تسكت. إلاّ أنه لم يلق تشجيعاً من الدورية لهذا العمل، فخاف على حذائه وسكت.

في تمام التاسعة وخمس دقائق وخمس عشرة ثانية، سمح رئيس البلاط العاجي لرئيس الدورية أن يدخل أسعد إلى مكان العرش السلطاني، يسبقهُ تقرير بكشف النيّات السيئة التي كانت تختلج في صدر أسعد طوال الليلة الماضية لإزعاج دعة سلطان المكان وخدش هدأة ملك الزمان.

أحس أسعد أن أمهُ تلدهُ الساعة وهؤلاء حوله ممرضون وأطباء وقرّاء تعاويذ. أو أنه يحلم حلماً يعرف أنه سينتهي بعد لحظات، لذا ليس هناك مبرر كي يخاف خوفاً حقيقياً. فكر أسعد على هذا النحو، وابتسم في سرّهِ، ثمَّ أطلق ضحكةً عاليةً في بهو البلاط حتى هجم عليه الحرّاس وأغلقوا فمه، وقرأوا في أذنيه تعويذة السكوت، وقالوا له: كلما أردت أن تتحدث عضّ شفتك السفلى حتى تدمى، وناولوه شفرة حلاقة صدئة وأمروه أن يبلعها مع قدحٍ من العصير الملوكي وتناول أسعد الشفرة بمرح وبلعها، وقال هازئاً: لماذا لا أبلعها ما دمت في حلم وسوف أفيق معافى؟

وبعد حين، خرج الملك من الحائط في لحظة، يرتدي دشداشة مقلمة في أعلاها جيب منتفخ بما فيه وأراد أسعد أن يصرخ لمرأى الملك لكنهُ قال بصوت يكاد يسمع: آه، إنه يرتدي مثل دشداشتي، ما أعظم مدير مدرستنا إنه لا ينسى أحداً، يرسل معونة الشتاء إلى كل الأماكن، حتى إلى هذا المكان البعيد.

قال الملك لرئيس البلاط وهو يفرك عينيه: مَنْ هذا الولد؟

ردّ رئيس البلاط: إنه الذي يكيد لحضرتكم المكائد وينوي بعرشكم السوء ويقلق مضجعكم يا ملكنا العظيم.

قال الملك وهو يتثاءب: لكن مضجعي لم يقلقهُ أحد وكنت نائماً ملء جفوني لولا الضجّة التي في بلاطي الآن..

ـ عفوك جلالة الملك.. كنّا مضطرين لذلك، إنها الأوامر الملكية.

ـ أعلم ذلك ولا أريدهُ أن يتكرر أبداً.

ـ عفواً ثانيةً ملكنا المبجّل، لا نستطيع أن نعدك بما تريد، إننا نخاف الأوامر الملكية.

ـ امش أيها الأحمق، أنا الذي يأمر هنا وليس الأوامر الملكية.

ـ ولكن يا سيدي أنا لا أستطيع مخالفة الـ...

ـ سوف أقطع رأسك وأرميه للكلاب.

ـ لا تقدر معالي السلطان..

ـ ماذا تقول يا ابن الـ....

وهنا، وضع أسعد دشداشته في حزامه ونزل يفصل بين الملك ورئيس بلاطه ويباعد بينهما ويتلقى الضربات وزبد الأفواه المتطاير من شفاههما، ويصيح وسط الضجيج: يا ناس.. اتقوا الله، هل غرّكم الشيطان ودخل في بلاطكم.. ابتعد يا رجل، وأنت يا صاحب الجسد الثقيل ابتعد تكاد تقطع أنفاسي.. عيب ما تفعلانه.. عيب.

وبعد أن فصل أسعد في أمر المعركة، تنحّى جانباً ليستريح، وكان الحرّاس قد استلقوا على قفاهم في إغفاءةٍ عميقة ليس لهم علاقة بما يجري. وانسحب رئيس البلاط بهدوء ينفض الغبار عن ملابسه وينفخ قبعته محاولاً إعادة شكلها الأصلي بعد أن دعكت تحت الأرجل، كأنّهُ راجع من خضم معركة حارّة، وأغلق الباب خلفه.

جلس السلطان على كرسيه المذهّب، ونادى على أسعد أن يجلس جنبه ففرح أسعد وقال: سوف أجرّب شيئاً جديداً وسأحكي في المدرسة عن جلوسي جنب السلطان. وصعد إلى كرسي خالٍ وجلس عليه. وكان كرسياً عالياً لم يمكّن أسعد أن يصل قدميه بالأرض المفروشة.. وكانت دشداشته قصيرة فاضحة.

ضحك السلطان وترقرقت العافية في خدودهِ:

ـ سأجعل منك وزيراً يا أسعد ثواباً لك..

ـ ولكني لم أشتغل هذهِ الشغلة من قبل..

ـ ستتعلمها بسرعة..

ـ وما هي وزارتي أيها الملك؟..

ـ لا أعرف الآن، ولكني غداً أو بعد غد أجد لك واحدةً، وإذا اضطررت أفرغت لك حقيبة وزارية بعد يومين أو ثلاثة وأعطيتك إياها..

ـ صحيح ما تقول؟. ما أشدّ فرحي! هل توزعون الحقائب مجاناً، بالله عليك أيها السلطان أريد حقيبة جلدية لكتبي المدرسية، لقد سئمتُ حقيبتي القماشية البالية التي خاطتها أمّي في العام الماضي..

وكان أسعد كلّما صفن دقيقة تكدّر انشراحه لأنه يعرف أن هذا الحلم سينتهي بعد لحظات ولن يجد حينذاك حقيبة جلدية فاخرة. ولكنه كان يقول في نفسه: هل تخسر شيئاً يا ولد؟ إنه مجرد حلم تفيد منه أكثر مما تُضرّ، لعله يجعلك ترى ما لم ترهُ من قبل.

وفرك يديه وهو يعتزم إكمال الحلم.

نزل السلطان من كرسيه الشاهق، ونزع دشداشته فظهر بنطلونه الجينز المحكوك وقميصه الديسكو الهفهاف، وقشّر علكاً من غلافهِ الملوّن ووضعه في فمهِ مطقطقاً به وهو يقول:

ـ وأنت أعور يا أسعد..

ـ نعم سيدي الكبير..

ـ وقانون البلد يقضي أن يُقطع رأسك.

صعق أسعد لذكاء الملك، وقال في نفسه، كيف يكون قد عرف أني أكيد له مكيدة الموت، وأخبىء في لباسي الداخلي كيلو غراماً من مادة تي إن تي الشديدة الانفجار. ولكنّ أسعد تمالك أعصابه قائلاً: ولماذا يا سيدي الملك يقضي القانون بقتلي؟

ـ القانون يقضي بقطع رأس كل أعور.

ـ كل أعور.. كل أعور!؟

ـ أجل..

ـ لماذا يا صاحب العظمة والبهاء؟

ـ سأجيبك عن سؤالك بخلاف ما يجري في البلدان المجاورة من قمع وكبت وتضليل وخنق لحقّ السؤال ولمسألة الحريات، فأقول: إنكم تهددون مستقبل البلاد السياحي.

ـ ولكنك يا سيدي أصدرت أمراً بجعلي وزيراً قبل قليل، كيف تريد موتي الآن؟

ـ وما علاقة موتك بكونك تبقى وزيراً في بلاطي العاجي، أيها الولد الملحاح؟

ـ وبعد يا سيدي، أليس هناك عفو استثناءً من عقابكم.

ـ لا تقل هذا، إنه ليس عقابي، أريدك أن تعرف ذلك أولاً، فلا تغضب عليَّ وتغل في صدرك، تذكّر دائماً كلام الله عزَّ وجل.. «ومَنْ يغلل يأت بما غلَّ يوم القيامة». وليس في خدمة الوطن أنْ تتعاون في الخفاء مع المعارضة بسبب ما سيحصل لك، أريدك أن تكون أكبر من الهراء الذي يقال عن سلطتي، وأن تفهم الأسباب الموضوعية لما أصنعه معك ومع أمثالك.

وبعد دقائق اجتمع في البلاط الفسيح ناس كثيرون، أمراء وسلاطين ووزراء ووكلاء وزارات ومديرون عامّون وضبّاط مرور ومقاولون وخبّازون وربّات بيوت وحمّالون وصبّاغو أحذية راقية وممثلات وممثلون وأصحاب معارض سيارات ووكالات بيع البيض والدجاج ومخرجون إذاعيون وجنود مكلّفون ومسؤولو استعلامات بعض الدوائر وخطباء جوامع ومندوبون لصحف ووكالات أنباء محلية وأجنبية وضيوف من أحزاب وطنية وحكومات ائتلافية صديقة. وكان هؤلاء الناس منسجمين في أحاديث ليست مفهومة لأسعد الذي كان فرحاً بهذا المشهد البهيج والمليء بألفةٍ لم يعهدها من قبل.

أفرغت السعادة حمولتها في صدر أسعد حتى كاد يفرد لنفسهِ جناحين ويطير. استغرب الملك والحاضرون ما يفعله أسعد وقالوا له: كيف تكون سعيداً ورأسك يقترب من سيف السيّاف لحظة بعد لحظة؟!!

ـ أولاً، أريد إبلاغكم أنني ذو صفة عسكرية ولا يكون موتي إلّا رمياً بالرصاص وهذا ما يتفق أيضاً مع شرائعكم حسب ما أعتقد.

ـ أجل.. أجل.. شكراً لك على هذه الملاحظة، سنأمر لك بما تريد..

ـ شكراً لاستجابتكم.

ـ ألكَ رغبة في شيء قبل أن تموت يا أسعد.

ـ لديّ رغبة ولكنكم لا تقدرون على تنفيذها.

ـ مَنْ قال لك هذا؟.. أنا الملك وهذه مملكتي ووزاراتي وحرّاسي وخدمي أستطيع أن ألبي لك كل الرغبات قبل أن تموت، ثم لا تَنْسَ أنَّ هناك صحفيين وعدسات تلفزيونية مباشرة يشهدون علينا أجمعين، ونحن نحترم الرأي العام.

ـ ولكنَّك يا صاحب الهيبة، رغم كل شيء لا تقدر على رغبتي.

ـ لا تقل هذا! إنك تستثيرني وتخدش قوتي وسلطاني.

ـ معاذ الله.. معاذ الله أن أفعل هذا..

ـ إذن، قل.. تحدّث بسرعة.

ـ رغبتي هي أن أموت.

ـ مستحيل.. هذا طلب مستحيل، لا أستطيع أن ألبي هذه الرغبة إنها خارقة وخارج سلطان الأرض.

ـ لماذا؟!

ـ لأني إذا جعلتك تموت فمن سأقتل بعد قليل، وقتل مَنْ سيشهد هؤلاء الآتون من فجٍّ عميق؟

ـ سيشهدون موتي..

ـ وقتلك المتفق عليه قانوناً من سيشهده.. لا.. لا يا عزيزي نحن أصحاب مبادىء ومثل لا نقتل ميتاً.. أطلب طلباً آخر نلبِّهِ لك فوراً.

ـ لا أريد شيئاً..

ـ لا يجوز.

ـ ليس بي حاجة لطلب آخر. ألم أقل لكم إنكم عاجزون عن تنفيذ رغبتي؟..

ـ ولكن شرائعنا تقضي بإبداء رغباتك قبل قتلك.

ـ ليس لديّ رغبات.

ـ قل أيّ شيء ما عدا الذي قلته سابقاً وسوف ترى إجابتنا، وهذا الجمع المحترم على ما أقول شهيد.

ـ لا أريد إحراج مقامكم.

ـ ليس ثمة إحراج، قل وسترى.

ـ ماذا أطلب وأنت تقول إنَّ طلبي مستحيل.

ـ أجل كان طلبك مستحيلاً.. والمستحيل أمر واحد فقط، وأنت قد طلبتهُ وما دمت تتنازل عنه الآن فكل الأمور تصبح يسيرة.

ـ إذن رغبتي.. رغبتي.

ـ قل لقد قطعت أنفاسنا.

ـ رغبتي هي..

ـ تحدّث، نفد صبرنا.

ـ رغبتي هي أألاّ أموت.

ـ مستحيل!

وضجَّ المكان كالتنّور ساعة تصبّ فيه دفقة نفط أو زيت.

ـ هاه.. إنه مستحيل ثانٍ، ونحن متفقان يا ملك الزمان أنَّ ثمّة مستحيلاً واحداً فحسب في دنياك.

احمّر وجه الملك وتندّى جبينه ورقبتهُ واخضوضرت يداهُ وقدماهُ.. وصرخ في الناس: أنزلوا هذا الرجل، وفكّوا وثاقه واتركوه حرّاً.

وفكّر الملك في سرّهِ العميق: ليكن أسعد حرّاً حتى أستدعي المستشارين والخبراء وأصحاب الكفاءات والمهارات النادرة لنجد الطريق الأضمن في قتل أسعد دون إثارة ضجّة ودون إعطاء خسائر في سوق الاستهلاك المحلي وعند مكاتب ووكالات الاستيراد الخارجي.

وأبدل الملك ناسه الحاضرين بأناس آخرين انتدبهم بأحرف النداء الملكية. فجاؤوا في لحظات، واحد في بيجامة نوم، والثاني لم يكمل حلاقة النصف الثاني من وجههِ، والثالث يزرّر بنطلونه بصعوبة، والرابع لمّا يزل يفهق وكأسهُ مترعة والخامس يسبّح بذكر الله بمسبحة طويلة وآخرون يفركون عيونهم من بقية النوم وآخرون وآخرون، ولمّا حكى الملك لهم الحكاية تبودلت الهمسات بينهم وعلت الأحاديث واختلطت الأصوات كأنَّ تياراً كهربائياً سرى في أجسادهم وراحوا يبحثون في أماكنهم، لا يستقرون على أرض.

ولكن الحال لم يطل بهم هكذا حتى برز أكبرهم وقال للملك: وجدناها.

ـ ما هي؟

ـ أن تكرم أسعد، وتصنع له عيناً من زجاج سحري فلا يعود أعور وهكذا نراوغ القانون القاضي بقتلهِ.

ـ الله أكبر. الله أكبر، كنت واثقاً من حكمتكم يا رجال الحكمة والأمر والمشورة، هيّا، أجلبوا لي أسعد.

وجاء أسعد وفي يدهِ خيارة ينهش فيها.

قال الملك بتودد: لم يكن هنا داعٍ لزعلك علينا يا أخي، سوف نكرمك ونجعلك تندم لأنَّك فكرت بأننا يمكن أن نؤذيك يوماً.

ـ وهذا فعلاً ما كان سيحصل.

ـ ربّما في الماضي، الآن الأمر اختلف..

ـ كيف!

ـ بعد قليل يجري لك أحسن أطباء بلادي عملية لعينك وستقوم بعدها رجلاً آخر له عينان صحيحتان، ولا أحد يناديك بلقب مقيت وبذلك تنجو من طائلة القانون أيضاً.

ـ أنا لا أضجر من اللقب المقيت!

ـ لا تخجل من قول الحقيقة، نحن نريد مساعدتك فحسب..

ـ لا أريد عيناً كاذبة.

ـ إنها عين حقيقية.

ـ لا.. لن أقبل أن تفقؤوا عيني.

ـ (يضحك الملك) أية عين يا أبله التي تخاف عليها؟ من ذا الذي يخاف على عينه العوراء سواك؟ ما أجنَّكَ!

ـ عيناي سليمتان أصلاً، وأنا أعجب ممّا تقولون عن الألقاب المقيتة والوجه السياحي ومستقبل البلاد الحضاري!

ـ ماذا تقول، لا شك أنك لا ترى وجهك.

ـ أنا لستُ أعورَ باختصار.

ـ قلت لك، لا تخجل سوف نشفيك.. هيّا تعال معنا.

ـ لا حوَل ولا قوة إلاّ بالله..

ـ عجباً ما نسمع منك يا صغير.

ـ قل لي أيّها الملك العظيم واشهدوا عليَّ يا أصحاب الوجوه النضرة أليس الأعور هو الذي يرى جانباً واحداً من الدنيا ولا يرى الآخر؟

ـ أجل.. أجل هو ذاك.

وهتف الحاضرون: أجل كما قال ملكنا هو ذاك.

ضحك أسعد، وعوص عينه السليمة قائلاً:

ـ إذن أنت يا جلالة الملك أعور وأصحابك عور أيضاً.

ـ لقد جنَّ الولد!

لم أجن!..

ـ إذن تجاوزت حدودك، فحقَّ قطع رأسك، تعال أيُّها السيّاف.

ـ مهلك لحظة يا صاحب المعالي والشوامخ.. هل من الممكن أن نتحادث معاً كصديقين دقيقةً واحدة أو اثنتين؟

ـ ارجع أيّها السيّاف، وتكلم يا طويل اللسان.

ـ شكراً لك.. شكراً لسعة صدرك، سوف أشرح لك الأمر..

ـ كيف!

ـ أنتم ترون الليل أو ترون النهار من الدنيا ولا تقدرون على أن تروا الليل والنهار في آن واحد.

ـ هذا ليس اكتشافاً.

ـ بل اكتشاف حقيقي أيّها الملك، حيث أنني أرى في عين الليل وفي الأخرى النهار.. فلست أعور كما تحسبون.. أنا الذي أرى جانبين من الدنيا وليس جانباً واحداً مثلكم.

أطرق الملك، وسكت الحاضرون يختلسون النظر إلى وجه الملك ينتظرون قرارهُ. طال الصمت في البلاط. وفجأة صرخ الملك:

ـ أريد أن أرى الليل والنهار معاً أنا أيضاً.

* * *

وخرج أسعد من القصر العاجي مرفوع الرأس ومبتهج الصدر، فقد انتصرت حجتهُ، وابتعد رأسه عن سيف السيّاف. وفي الطريق خارج القصر، سأل نفسه: يا ترى متى سينتهي هذا الحلم؟. آه كم كان متعباً هذا الحلم الملحمي!

وكان يتلفت يميناً ويساراً يقرأ ملامح المكان ويبحث عن اسم له، حتى سمع عبر الجدران المحيطة بالطريق «عوداً شرقياً وبكاء غزال»(*) وكان الصوت يعلو ويتعاظم كأنّه صوت من السماء. توقف أسعد ينظر في الأرجاء فجاءتهُ أصوات الحرّاس الراكضين إليه.. خاف أسعد، إلاّ أنّه طمأن نفسه فوراً إلى أنّ سوءاً لن يصيبه منهم ما دام هو في حلم. وفي الوقت نفسه لم يكن راغباً في تكرار هذا الحلم فهو ثقيل وكابوسيّ ودامٍ. همَّ بالهروب إلاّ أنّ عجلات العربات الملكية أدركتهُ وخاف أن تلوكهُ فتوقّف صامتاً كمن ينتظر أمراً جللاً. أركبوهُ في العربة وحفّوه بالحرس المبتسم، وسقوهُ عصير التمر الممزوج بالحليب، ولمّا أوصلوه إلى الملك عرف أنّ ذلك الصوت الحزين كان صوت صديقه الملك وليس صوتاً من السماء.

قال الملك: سوف أكرمك بكل ما أستطيع.

أجاب أسعد: زاد الله خيرك يا صاحب الخير.

قرر الملك: خذ، أمرتُ باعطائك ألف ألف دينار ذهباً خالصاً.

نظر أسعد إلى الصناديق الخشبية المليئة بالدنانير الذهبية. وكانت الصناديق تمتد في البلاط الطويل، صندوقاً فوق صندوق، وصندوقاً جنب صندوق، لا تكاد تُقفل من حمولتها الذهبية الكبيرة.

قفز أسعد إلى الصناديق يتلمّسها بهدوء، ثمَّ جنَّ جنونهُ:

ـ قلت كم عددها أيّها الملك؟

ـ ألف ألف دينار ذهباً.

ـ ألف ألف دينار.. هاه.. ذهب، ذهب..

ـ ولكن قل لي ماذا تنوي أن تفعل؟

ـ دينار، ديناران، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة ....

ـ ماذا تفعل يا أسعد.

ـ انتظر أيها الملك المعظم، إني أعدُّها.

* * *

عندما سار أسعد في طريقه الطويلة وخلفهُ الذهب قناطير مقنطرة. كان الصوت لمّا يزل يتردد في أنحاء المكان الخالي، بعيداً عن كل المدن والناس والأحوال، هنالك حيث أسعد في نقطة صغيرة تحت الشمس.

..... «مضى زمن كانت المدن العربية فيه ثغوراً.

لقد جاءنا زمن المدن المصرفية»(**).

بغداد

(*) من قصيدة لعبد الوهاب البياتي.

(**) سعدي يوسف، شاعر عراقي.

صدر حديثاً

طبول المطر

تأليف إسماعيل كاداريه

ترجمة د. محمد عضيمة

وفي وسط المعسكر تابعت طبول المطر دويّها، فيما أخذ الجنود يغطّون المعدّات. بدا معسكرهم بخيامه وبيارقه، برایاته وشعاراته المعدنيّة، بدا مخزناً صبيحة ذلك اليوم الخريفي. ها هو أعظم جيش في عصرنا يبلّله المطر على مرأى ومسمع من أبراجنا، ورجالنا. وسيدرك الذين سوف يعيشون على هذه الأرض من بعدنا، أنه لم يكن سهلاً علينا الصمود في هذا الصراع الهائل ضد الغول الأكثر ضراوة آنذاك. لن نشيد لهم التماثيل التذكاريّة والأعمدة الجليلة. إذ لم يكن لدينا الوقت لبناء ذلك، وربما لن يكونه أكثر في المستقبل، أثناء الهدوء، بين العواصف التي لا تزال بانتظارنا. لكن ها نحن نترك ما يحلّ محلّها. نترك هذه الحجارة الثقيلة الضخمة، حجارة أسوارنا يبلّلها مطر المعارك في هذا الصباح الرمادي.

منشورات دار الآداب